مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد الرابع والعشرون - المجلد السادس - اللغة العربية - كانون أول 2024 م
doi.org/10.52866/esj.2024.06.24.11

نظرية الشك عند طه حسين من الشعر الجاهلي إلى الدين والتراث (قراءة إثرائية في ما أحدثه منهج الشك من ثورة فكرية)

م.د. سندس قاسم عبد الله
الجامعة العراقية / كلية العلوم الاسلامية
E-Mail: sundus.q.abdullha@aliraqia.edu.iq

مستخلص :

لا يهدف بحثنا إلى إعادة طرح موضوع الشك في الشعر الجاهلي، وهو الموضوع الذي تبناه الدكتور طه حسين، فتلقفه الكثير بين مؤيد ومعارض، ولا يسعى إلى تبني آراء أحد الفريقين، وإنما غاية هذا البحث هو التنبيه إلى الحركة الفكرية التي أثارتها آراء طه حسين، والتي تعود في منطلقاتها إلى ما تبناه من منهج جدلي، أو ما سمي بالمنهج الديكارتي، فبغض النظر عن التي أفرزه النزاع الفكري من نتائج، سواء أكان ذلك على مستوى الرفض أم التأييد، فتبني مثل هذا المنهج يُعدُّ الحجارة التي ألقاها الدكتور طه حسين في بركة راكدة، فحرك بسببها الأفكار، وشجَّع الكثير من الباحثين على تناول موضوعات كانت تعدُّ من المسلمات . ومهمة تحريك الأفكار هي الخطوة الأهم باتجاه بناء حضارة واقعية تواكب مسيرة العالم، فليس ثمة تطور في أمة من الأمم، مالم تقم تلك الأمة بتشجيع أبنائها على النظر في منجزاتها السابقة . ومن هنا يكون الاهتمام منصبَّاً على المنطلقات الفكرية، وليس على الإفرازات والنتائج .

الكلمات المفتاحية: نظرية الشك، الحراك الفكري، متعالقات الموضوع المحوري ، قضية الدين.

The Skepticism Theory According to Taha Hussein From pre-Islamic poetry to religion and heritage (An enriching reading on the intellectual revolution that the skeptical approach has brought about)

Dr. Sundus Kassem Abdullah
The Iraqi University/ College of Islamic sciences
E-Mail: sundus.q.abdullha@aliraqia.edu.iq

Abstract

The aim of this research isn't to represent the issue of skepticism in pre-Islamic poetry, a topic that Dr. Taha Hussein adopted, which led many others to embrace between supporters and opponents. Also, it doesn't seek to assume the opinions of either party. Rather, the purpose of this research is to alert the intellectual movement raised by the views of Taha Hussein, which dates back to what he adopted from the dialectical method, or what was called the Cartesian method. Regardless of the results of intellectual conflict, whether at the level of rejection or support, adopting such an approach is tantamount to throwing stones into a stagnant pool, and for this reason, it stirred ideas and encouraged many researchers to take up topics that were taken for granted. The task of moving ideas is the most important step towards building a real civilization that keeps pace with the march of the world, as there is no development in a nation unless that nation encourages its children to consider its previous achievements. Hence, attention is focused on intellectual premises, not on outcomes and results.

Keywords: - The Methodological Basis -- Intellectual Movement --- The central topic (pre-Islamic poetry)- Religion Issue .

المقدمة

لعلَّ مما لا يخفى على الباحثين أن الدكتور طه حسين أراد أن يصطنع منهجاً فلسفياً لدراسة الأدب ، وكان دأبه في هذا المنهج أن يتبع خطوات ديكارت في الشك، بحثاً عن حقائق الأشياء. إنَّ أهم متطلبات هذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً . فاتجه الدكتور إلى دراسة الأدب العربي وتاريخه بهذا التجرد، سواء من التاريخ أو الدين أو القومية، وقد وقف على أهم منجزات التراث العربي، وهو الشعر الجاهلي، فحاول أن يجريه على وفق متطلبات هذا المنهج، فنتج عن ذلك نتائج لم يرتضيها كثير من المعنيين بشؤون الأدب والتاريخ والدين . ونحاول في بحثنا هذا أن نتناول هذا الموضوع، لا من حيث النتائج أو الجدل الذي أحدثته آراء طه حسين، وإنما من حيث التنبيه على أهمية مثل هذا المنهج في إثارة الموضوعات الحساسة، من أجل إعادة النظر في المسلمات، وصولاً إلى النتائج التي يرتضيها العلم والعقل. وقد حاولت أن أسلك المنهج الاستقرائي في بحث الآراء المختلفة، بشيء من الإيجاز والتكثيف

والله الموفق ..

أولاً : الأساس المنهجي

أ. نظرية الشك

لعلَّ أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع اسم ديكارت هو اقتران هذا الاسم بمفهوم الشك، ولكنَّ الحقيقة أنَّ هذا المنهج لم يظهر فجأة في حياته، فقد درج مؤرخو الفلسفة الديكارتية على تقسيم حياته الفكرية، كما تبدو في مؤلفاته إلى ثلاث مراحل رئيسة، هي :

1. مرحلة المنهج والعلوم .
2. المرحلة الفلسفية البحتة .
3. والمرحلة الفلسفية الأخلاقية[1] .

وبتنامي تلك المراحل الفكرية تبلورت لديه نظرية الشك المنهجي، والتي تكمن أهميتها في كونها الخطوة الأولى للفيلسوف على طريق المعرفة، حين يضع الحقائق كلها موضع االبحث[2] .

لقد كان دأب ديكارت السعي للوصول إلى منهج يمكن استخدامه في كل البحوث، مهما اختلفت موضوعاتها، ومن أجل ذلك بدأ ينظر في العلوم التي درسها، ويوازن بين حججها وبراهينها، فـ «وجد أن أكثرها تأكداً ويقيناً هي براهين الرياضيات، ولما كان يعتقد بأن العقل الإنساني واحد، فإنه لم يجد سبباً لهذا الاختلاف بين العلوم في مراتب اليقين إلا اختلاف المناهج التي يسلكها الباحثون في العلوم المختلفة، وأيقن أنه لو طبق على كل علم المنهج الذي يتبعه الرياضيون في الوصول إلى براهينهم لبلغت العلوم درجة الرياضيات من حيث استقرار النتائج، ولم يبق شيء يبرر اختلاف العلماء ومجادلاتهم»[3]. وبناء على تلك المعطيات استطاع تقديم منهج يقوم على الشك في كل شيء. ولكن عبارة (كل شيء) لا تعني المطلق، فقد استثنى ديكارت من الشك : الدين،

---

(1) ديكارت وسلسلة نوابغ الفكر الغربي، د. نجيب بلدي، دار المعارف، ط2 : 47ـ 51.

(2) العالم أو كتاب النور تأليف : رينيه ديكارت ، ترجمة أميل خوري، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1419هـ ـ 1999م : 7.

(3) مقال عن المنهج تأليف : رينيه ديكارت، ترجمة : محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط3، 1985 : 137.

والأخلاق، والاجتماع، والسياسة، «فلم يشك في عقائد الدين السائد والكنيسة والكتاب المقدس، ولافي عادات الأمة وتقاليدها وأخلاقها، ولم يضع القضايا السياسية ونظم الحكم موضع الشك، فكان أول من خان منهجه، ولم يف بمتطلباته، وامتد الخلط والتلفيق بين ما هو عقلي وما هو ديني عند ديكارت من المنهج إلى الموضوع»[1]. ويبدو لي أنَّ من الأهمية بمكان أن نركز على قضية مهمة؛ هي أنَّ ديكارت بحسب ما تقدَّم كان قد استثنى القضايا الميتافيزيقية والإنسانية من أن تخضع لنظرية الشك، فهذا التركيز يمنحنا انطباعاً أولياً بأنَّ الدكتور طه حسين تجاوز تطبيقات ديكارت لهذا المنهج، فوسع من إجراءاته، حتى أدخل فيه ما استثناه ديكارت نفسه، كما سيرد لاحقاً في بحثنا هذا. ويبدو لنا أنَّ من المهم التذكير دائماً بأنَّ منهج ديكارت لم يسلم من المؤاخذات، فقد رأى الباحثون أنّ ديكارت قدم فلسفة ملتبسة غائمة كانت تفتقد في أغلبها إلى الوضوح المنطقي، فـ «لقد أعلن أن الهدف من فلسفته هو أن يضع الإنسان أمام عالم يقدمه العلم وقوانينه، ومع ذلك قدم لنا عالماً تدعمه الرؤى الإيمانية، ولم يستطع أن يتفادى تلك الرؤية اللاهوتية للعالم التي سادت العصور الوسطى، التي كانت تنظر إلى العالم على أنه مزيج من فعل الإنسان وفعل الله لأنه لا تعارض عندهم بين العالمين، ولم يكن هذا غريباً على ديكارت الذي تتلمذ على يد اليسوعيين ودان بمبادئهم، وأخلص إلى المذهب الكاثوليكي أيما إخلاص»[2]. إذن كانت لدى ديكارت مناطق محرمة على الشك، ولاسبيل إلى إجراء منهجه عليها . عدا ذلك كانت مناطق اشتغاله خاضعة لعنوان المعرفة، ذلك العنوان الذي يقوم على الجمع بين مفهومين : الذات العارفة، والموضوع المعروف[3] .

ب ـ تبني طه حسين للنظرية

ليس بالبحث حاجة في هذا الفقرة أن يعرَّف بالدكتور طه حسين، ولا أن يعيد تناول دراسته في الشعر الجاهلي؛ ذاك أنَّه وإيَّاها أُشبِعا بحثاً، من لدن الكثير من الباحثين؛ غير أنَّ ما يعنينا هنا هو التركيز على الأساس المنهجي الذي تبلورت فيه أفكاره، فهو المستهدف في هذا البحث، فمما لا يخفى على أحد أنَّ طه حسين حاول الإفادة من منهج ديكارت، فأجراه على دراسة الشعر الجاهلي، فكان الشعر الجاهلي عنده هو النواة الأولى التي تنامت عليها كلُّ الموضوعات المتعلقة بسياقها ، ومنها موضوعا التاريخ والدين، وهنا نجد بنا حاجة لأن نذكِّر بأنَّ طه حسين خاض فيما تحاشاه ديكارت، فكأنَّه حاول أن يسد النقص في إجراءات منهج ديكارت؛ إذ وجد أنَّ من المستحيل تحاشي هذين الموضوعين؛ لأنَّهما موضوعان غير منفصلين عن سياق بحث الشعر الجاهلي، ذاك أنَّ فيهما ما يمكن أن يدعم الأدلة والبراهين التي ساقها في بحثه . وكان قد أشار ابتداءً إلى المنهج، فقال : «أريد أن اصطنع في الأدب المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث، والقاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه

(1) معاثر المنهج الديكارتي من البداهة والوضوح إلى التلفيق بين العقلي واللاهوتي ، غيضان السيد علي، مجلة الاستغراب ، 2021م : 179.

(2) معاثر المنهج الديكارتي : 178

(3) قواعد المنهج عند ديكارت ، شرفة وحيدة، جامعة 8 ماي 1945، قالمة ، كلية العلوم ، قسم الفلسفة ، 2017ـ 2018 29.

خلواً تاماً» [1] .

ونفهم من خلال تلك العبارات أنَّه ينبغي أن يتخلى عند البحث عن كل المتبنيات؛ القومية، والدينية، وكل ما يتصل بهما، وأن لا يتقيد بشيء، ولا يذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح، ذلك أنّا إذا لم ننس قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف .

لقد وجد الدكتور طه حسين هذا التجرد ضرورياً للوصول إلى نتائج مرضية في البحث؛ ذاك أنَّ عدم التجرد سيقود الباحث إلى القبول بما بين يديه من موضوع، فرأى أن يسلك طريقاً آخر، هو أن يضع علم المتقدمين كله موضع البحث . أو بالأحرى أن يضعه موضع الشك ابتداءً، فلا يقبل شيئاً مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت، إن لم ينتهيا إلى اليقين، فقد ينتهيان إلى الرجحان، والفرق بين هذين المذهبين عظيم، فهو الفرق بين الإيمان الذي يبعث على الاطمئان والرضا، والشك الذي يبعث على القلق والاضطراب، وينتهي في كثير من الأحيان إلى الإنكار، فمذهب القبول «يدع كل شيء حيث تركه القدماء لا يناله بتغيير ولا تبديل، ولا يمسه إلا مساً رفيقاً . أما المذهب الثاني فيقلب العلم القديم رأساً على عقب، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئاً كثيراً» [2].

ويعنينا بعد هذا العرض أن نقف على مقتربات أهم قضيتين بحثهما الدكتور طه حسين، وهما :

1ـ قضية الشعر الجاهلي

قرر طه حسين، على وفق معطيات منهج الشك، بأن «الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام»[3] .

لعلَّ مثل هذا التقرير من لدن طه حسين يستدعي أن تثور له ثائرة المدافعين عن التراث، ولكنَّ الثورة تلك بحدِّ ذاتها يمكن أن تعدَّ إفرازاً من إفرازات نظريته، ومن ثَمَّ تكون فائدة تلك النظرية أنها أحدثت حراكاً فكرياً صاخباً، ما كان له أن يظهر لولاها؛ غير أنَّا مع ذلك ينبغي أن ننبه إلى ما يأتي :

– إنَّ طه حسين لم ينف الشعر الجاهلي كلياً، فقد قال : «على أني أحب أن يطمئن الذين يكلفون بالأدب العربي القديم، ويشفقون عليه، ويجدون شيئاً من اللذة في أن يعتقدوا أن هناك شعراً جاهلياً يمثل حياة جاهلية انقضى عصرها بظهور الإسلام، فلن يمحو هذا الكتاب ما يعتقدون، ولن يقطع السبيل بينهم وبين هذه الحياة الجاهلية التي يدرسونها»[4] .

ونفهم مما سبق، أنَّ غاية بحثه لم تقم على نيِّة مضمرة، هدفها إلغاء الشعر الجاهلي، وذلك بحسب إقراره على الأقل، ولكنَّه بحسب قوله أراد أن يكتشف طريقاً جديدة واضحة يصل بها المعنيون بدراسة الحياة الجاهلية إلى حياة جاهلية لم يعرفوها، حياة قيمة، مشرقة، ممتعة، مخالفة كل المخالفة للحياة التي يجدونها في المطولات المنسوبة للشعراء الجاهليين . وبهذا فهو لا ينكر الحياة الجاهلي.، وإنما كان مبعث إنكاره أن يكون ما يسمى بالشعر الجاهلي ممثلاً للحياة الجاهلية، « فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية، فلست أسلك إليها طريق الشعراء الجاهليين، لأني لا أثق بما ينسب إليهم، وإنما أسلك

(1) في الشعر الجاهلي، د. طه حسين ، دار المعارف للطباعة، ط2، 1998 : 14.

(2) في الشعر الجاهلي : 14ـ 15.

(3) المصدر نفسه : 19.

(4) المصدر نفسه : 28 .

إليها طريقاً أخرى، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن . فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي . ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه. أدرسها في القرآن، وأدرسها في شعر هؤ). الشعراء الذين عاصروا النبي وجادلوه، وفي ش).الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده»[1] .

2 . قضية الدين

بحسب المعطيات السابقة، نفهم أنَّ موضوع الدين في بحث طه حسين، كان من متعلقات بحثه للشعر الجاهلي، فلا انفكاك من بحثه، بوصفه أحد السياقات الرئيسة، التي يستطيع من خلالها الإيفاء بمتطلبات البحث، ولو أنعمنا ال). أكثر لوجدنا أنْ لا انفكاك من تناول موضوع القرآن الكريم، بوصفه أحد أهم الدعامات التي يستند إليها في البرهنة والاستدلال اللذين يقتضيهما المنهج الذي سلكه في البحث، فهو عندما نفى أن يكون الشعر الجاهلي ممثلاً للحياة الجاهلية، فإنه وجد في القرآن الكريم ما يغني في معرفة الحياة الجاهلية معرفة دقيقة، فهو يعدُّ القرآن الكريم « أصدق مرآة للحياة الجاهلية»[2] .

وبغض النظر عن النوايا، فإنَّ في الكلام السابق إقراراً بصدق القرآن الكريم، وقد قدَّم انطباعاً عنه من زوايا عديدة، فرأى أنه ليس من اليسير أن يعجب الناس بالقرآن، مالم تكن بينهم وبينه صلة، هي هذه الصلة التي توجد بين الأثر الفني البديع، وبين الذين يعجبون به، ولا يمكن أن نفهم أنَّ العرب قد قاوموا القرآن، مالم يكونوا قد فهموه، «وليس من اليسير؛ بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه، ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر. إنما كان القرآن جديداً في أسلوبه، جديداً فيما يدعو إليه، جديداً فيما شرع للناس من دين وقانون، ولكنه كان كتاباً عربياً؛ لغته هي اللغة العربية الأدبية التي كان يصطنعها الناس في عصره، أي في العصر الجاهلي»[3] . وإلى هذا الحد، وإذا ما استثنينا النوايا، لا نجد في الكلام طعناً، قدر تعلُّق الموضوع بسياق بحث الشعر، ولكنَّ الإثارة وقعت في قوله : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن، لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها»[4].

ثانياً: بما ثارت ثائرة المعارضين بسبب التشكيك في القصص التي وردت في القرآن الكريم، ولاشكَّ في أنَّ للمعترضين الحقَّ، كلَّ الحق، في أن يرفضوا ذلك، ولكن ما ينبغي أن يُشار إليه هنا، هو أنَّ طه حسين تناول هذا الموضوع من ناحية كونه سياقاً للموضوع الأساس، الذي هو الشعر الجاهلي، وليس هو موضوع البحث الأصلي، ولهذا دافع طه حسين عن نفسه في رسالته التي وجهها إلى مدير الجامعة المصرية، بقوله : «وأنا أؤكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه، وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأنا الذي جاهد ما استطاع لتقوية التعليم الديني في وزارة المعارف حين كلفت العمل في لجنة هذا التعليم»[5] .

(1) المصدر نفسه : 28 .

(2) الشعر الجاهلي : 28ـ 29.

(3) المصدر نفسه : 28 .

(4) المصدر نفسه : 38.

(5) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، صحح أصوله محمد سعيد العريان، دار الفكر العربي، ط7،

ثانياً : الحراك الفكري

أ- الموضوع المحوري (الشعر الجاهلي)

ذكرنا سابقاً، أنَّ غاية بحثنا هذا هو : الحراك الفكري الذي أحدثته آراء طه حسين في الشعر الجاهلي، ذلك الحراك الذي لم يقف عند موضوع الشعر الجاهلي فحسب؛ بل تناول السياقات التي بحثها طه حسين، بوصفها عوالق للموضوع لا يمكن الانفكاك عن تناولها، وبناء على ذلك نزعم أنَّ نظرية طه حسين كان لها الفضل الأول في النشاط الفكري الذي أعقبها على مختلف الأصعدة، الأدبية، والتاريخية، والدينية، والسياسية، وغير ذلك من متعلقات البحث، وفيما يأتي نحاول الوقوف على مظاهر الحراك الفكري الذي امتدَّ إلى يومنا هذا، بشيء من التركيز والتكثيف :

لعلَّ من أهم الذين تفهموا غايات دراسة طه حسين هو محمد أحمد الغمراوي، فقد حاول أن يشرح مبررات التعامل بالمقياس النقدي الديكارتي القائم على الشك، وإلى دواعي توظيف المؤلف لهذا المنهج، وقد عرج على رؤية الكاتب حول ما يتعلق بما جاء به المتقدمون[1]، فردَّ التهم الموجهة لطه حسين، ومنها إنكار الشعر الجاهلي، وقد دعم الكاتب فكرة إبطال هذه التهمة بأنَّ بحث طه حسين، على وفق منظوره يقوم على مجموعة من الافتراضات، وليس المسلمات، كما إنه لم ينكر الشعر الجاهلي، ولم يشكك في شعرائه . إنما ردد نفس الحقائق التي رددها ابن سلَّام الجمحي، وكذلك اختار تدريس الشعر العربي، ومن يحتقر شيئاً لا يوقف حياته لتدريسه[2]

ما يعنينا من كلام الغمراوي هو أنَّه لم يناصر الموضوع بقدر مناصرته المنهج الذي سلكه طه حسين، فقد رأى أن طه حسين (أراد أن يستدرج خصومه إلى تأكيد ظاهرة الانتحال، وأن يحبك عليهم أطراف الجزع ، فاستنبط لهم تلك الظاهرة من طريق لا يستطيعون منه فراراً... وقد كشف عما حمل على اليونان والرومان الديكارتيين، فالديكارتيون هم الذين سيكشفون عما حُمل على العرب)[3]. ومن المؤيدين لطه حسين حسن حنفي، ويبدو أنَّ التأييد للمنهج والإطار الفكري هو الغاية؛ إذ يقول : «ولقد اقتنعت بنتائج هذا البحث اقتناعاً ما أعرف أني شعرت به في تلك المواقف المختلفة التي وقفتها من تاريخ الأدب العربي... يتحدى المؤلف القراء أن يخالفوه نظراً لما لديه من براهين علمية ومناهج دقيقة»[4] .

غير أنَّ موجة الرفض كانت أكبر بكثير من موجة التأييد، وكان مبعث الرفض منصبَّاً على متعالقات الموضوع، وليس الموضوع نفسه، فلقد اعتقد المعترضون أن غاية الدكتور طه حسين ليست الشعر الجاهلي، وإنما كان التشكيك بالشعر الجاهلي هو الجسر الذي يتوصل من خلاله إلى هدم ثوابت الأمة، وقد عبر عن ذلك مصطفى صادق الرافعي بقوله: «إن إنكار الناس لم يتوجه إلى أصل نظرية طه حسين في الشعر الجاهلي فحسب؛ بل هو إنكار هيجته أقواله المقننة لمس شعور

1394هـ ـ 1974 : 133.

(1) الحركة النقدية حول كتاب طه حسين في الأدب الجاهلي، عمرو زاير ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة، 2007ـ 2008: 158

(2) ينظر : النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ، محمد أحمد الغمراوي ، المكتبة العربية ، بيروت ، 1981

(3) المصدر نفسه : 218

(4) ينظر : حوار الأجيال ، حسن حنفي، دار قباء ، القاهرة ، 1998 : 29.

الأمة المسلمة)[1] ، وقد أنكر المعترضون أن يبقى الكتاب متداولاً بين القراء، فقال بعضهم: (إلا أنه بالرغم من ذلك لايزال ينشر ويقرؤه الناشئة من دارسي الأدب العربي، وهم مغيبون عن مثل هذه الردود، غير مدركين لما يرمي إليه في حقيقته من اتخاذه الشك في الشعر الجاهلي دريئة يرمي من ورائها الدين واللغة والتاريخ الإسلامي)[2] . أما محمد لطفي جمعة، فقد رأى «إن كان المؤلف حسن النية، وغير ملم بالتاريخ، فقد وقع في خطأ، ولو أن مدافعاً عنه نفى الجهالة، وادعى أنه كتب هذه النبذة، وهو يعلم مخالفتها للحقيقة، ويخفي معرفته بأصول علم التاريخ، وقوانين المقارنة بين الأمم ، وأنه كتب ليدلل على نظرية انتحال الشعر الجاهلي، فقد أثبت المدافع عنه أنه حاول خداع الطلاب والقراء خداعاً ثقيلاً»[3]. وحاول بعض المعترضين إظهار تطرف طه حسين في الاستدلال[4]. ولم ينسَ المعترضون أن ينبهوا إلى قوة أسلوب طه حسين، بوصفه السلاح الأهم في الإقناع، فقال بعضهم : (ولعل من أهم العوامل التي جعلت طه حسين يعتقد أنه يستطيع بث هذا الفكر المنحرف في عقول الجيل الناشئ المفرغ ثقافياً والتملص من ناقديه اتخاذه من أسلوبه اللغوي ستاراً يحتمي وراءه، فقد ساق كتابه في أسلوب أخاذ موسيقي خادع يلف القارئ به لفاً حتى يكاد ينسيه نفسه ويصرفه عن مناقشة رأيه)[5] .

ب ـ متعالقات الموضوع المحوري (من الشعر الجاهلي إلى الدين والتراث) .

لعلَّ من المفيد هنا إعادة قولنا السابق، وهو أنَّ بحث موضوع الدين، والقرآن تحديداً من لدن طه حسين، لم يكن بحثاً محورياً؛ بل كان بحثاً في السياقات التي لابد من النظر فيها؛ بوصفها من متعالقات بحث موضوع الشعر، وذلك أنَّه وجد أنّ في القرآن الكريم ما يمثِّلُ دعامات فكرية يستطيع أن يستنبط منها الأدلة والبراهين التي تساعده في التثبت من حقيقة وجود الشعر الجاهلي؛ غير أنَّ تناول هذه السياقات هي التي أثارت الحراك الفكري، فكان موضوع الشعر الجاهلي هو النواة التي تنامت عليها الموضوعات الأخرى، ومن هنا عُدَّ كتاب الشعر الجاهلي، في عداد أخطر الكتب التنويرية التي ظهرت في القرن العشرين، على الرغم من أنه عرض فيه نظريته في الشعر الجاهلي، وليس في الدين؛ غير أنَّ من تداعياته أنَّه نقل النظرة إلى التراث من الحيز التاريخي، وأنه واجه التزمت الديني مواجهة جذرية، وآمن بوحدة الثقافة الإنسانية وجمع بين الفكر والممارسة، ولهذا رأى بعض الباحثين أن «موضوع الكتاب في ظاهره موجه للشك في الشعر الجاهلي، لكنه في حقيقته دعامة من دعائم الكفر ومعول لهدم الدين، وكأنه ما وضع إلا ليأتي على هذا الدين من أصوله»[6]، وأنَّ «طه حسين من ثمار مرحلة التغريب الواسعة، بعد أن تولته الجامعة المصرية القديمة بأساتذتها المستشرقين، الذين كانوا يعملون على استقطاب كل

(1) تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، صحح أصوله محمد سعيد العريان، دار الفكر العربي، ط7، 1394هـ ـ 1974 :168

(2) أشهر الردود على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين، دراسة نقدية تحليلية، نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، جامعة أم القرى ، 1426هـ ـ 2005 : 329.

(3) الشهاب الراصد ، محمد لطفي جمعة ، مطبعة المقتطف ، والمقطم ، مصر ، ط1، 1929 : 158ـ 159.

(4) ينظر : النحو العربي ومنطق أرسطو ، الحاج صالح ، مقال علمي : 73.

(5) مصادر الشعر الجاهلي وقيمته التاريخية ، ناصر الدين الأسد، دار المعارف مصر ، ط5 ، د ت ، 45

(6) تحت راية القرآن : 168.

من عجز عن إتمام تعليمه في الأزهر، وتوجيهه إلى أوربا، كي يعود حرباً على الأزهر والأزهريين»[1] ، وأن غايتهم التجرد من الإسلام ومن اللغة العربية وكل ما يصفونه بالقديم»[2] . ما يعنينا هنا أن هو أنْ نصل إلى أنَّ موضوع الشك في الشعر الجاهلي كان هو العامل الأول الذي انطلقت منه الأبحاث المختلفة وصولاً إلى بحوث شاملة في الحضارة والدين، ونستطيع أن نذكر بشيء من الإيجاز أسماء بعض الباحثين الذين يُعدُّون تلامذة لطه حسين، لكن تلك التلمذة لم تنصب على موضوع الشعر، بل تركزت أولاً على المنهج الذي اعتمده وابتعدت إلى بحث الفكر الديني ، فمن هؤلاء نصر حامد أبو زيد . إذ لا يمكن لباحث أن يشك في الأثر الذي أحدثه طه حسين في نصر حامد، وكثيراً ما دافع نصر عن فكر طه حسين، وحاول في بعض البحوث أن يقارن بين ما طرحه وطرح الشيخ محمد عبده[3]، والذي يقوم أساسا على المنهج والغرض ، وذلك في دراسته عن إشكاليات التأويل المنشور في كتاب التجديد والتأويل والتحريم ، التي اختار فيها نموذجين من نماذج التأويل في مطلع النهضة الفكرية المصرية ، وهما الإمام محمد عبده والشيخ أمين الخولي، «ففيما كان الغرض من التأويل عند عبده حسب أبي زيد هو مقصد الهداية أو الاهتداء بالقرآن من خلال فهم المراد من القول ... كان الغرض عند الخولي مختلفاً وهو البيان الذي يراه أبو زيد قريب الصلة إلى حد كبير في مفهوم المنهج اللغوي الفني الذي استخدمه طه حسين ، هذا المنهج اللغوي الفني اقتضى من طه حسين الشك في كتابات الأقدمين التي تؤكد نسبة الشعر الجاهلي لأصحابه، ليدرس النصوص نفسها دراسة لغوية للوقوف على مصداقية نسبتها لذلك العصر، وهو الذي اقتضاه أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل» [4] . فلاشكَّ في أنَّ الخولي تأثر بطه حسين، وأهم مظاهر تأثره أنَّ دراسته تقوم على المنهج اللغوي، «فقد كانت أساساً للعديد من المجهودات التالية، والتي تمخضت عن أحد الكتب التي واجهت المحنة نفسها، وهو كتاب الفن القصيي في القرآن الكريم للراحل محمد أحمد خلف الله، الذي ذهب فيه إلى ما ذهب إليه أستاذاه، ولكنه لم ينج من مصير طه حسين كما نجا عبده، فمحمد أحمد خلف الله اتخذ من المنهج الأدبي في فهم القرآن الذي تعلمه من أستاذه أمين الخولي منهجاً في دراسته للقصص في القرآن الكريم، وهو ما أقام الدنيا وأقعدها، حتى تعرض التلميذ والاستاذ إلى عقوبات»[5]. وبما أننا قدمنا الدكتور نصر حامد أبو زيد مدافعاً عن منهج طه حسين، فلا مناص هنا من أن نعرج على بعض جهوده التي تابع فيها خطى استاذه في البحث، وقد أثارت دراسات نصر هي الأخرى زوبعة من الاعتراضات، ولاسيما آراؤه في أن لا فرق بين النص البشري والنص القرآني فيما يخص اللغة؛ إذ يراهما متساويين، من حيث قوانين التكون والبناء وإنتاج الدلالة ... وينبغي التنبيه إلى

(1) محاكمة فكر طه حسين، مراجعة كاملة لمؤلفات وكتابات طه حسين، خلال خمسين عاماً ، في مواجهة ردود أكثر من أربعين عالماً، أنور الجندي ، دار النصر للطباعة الإسلامية ، شبرا: 7.

(2) المصدر نفسه : 37.

(3) يرى محمد عبده أن ذكر القصة في القرآن لايقتضي أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحاً، والقصص جاءت للموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ. كتاب مجلة المنار، مجموعة من المؤلفين، مطبعة المنار، 1315هـ .(مفتوح)

(4) طه حسين مع نصر حامد أبو زيد في منفاه، محمد فايز جاد ، مجلة بوابة الأهرام ، 2017 (مفتوح) .

(5) المصدر نفسه (مفتوح) .

أنه لا يلغي مصدرها الإلهي إلا أنها تخضع لقوانين الثقافة الإنسانية، يقول : « إن النصوص دينية كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة، والمصدر الإلهي لا يخرجها عن هذه القوانين لأنها تأنسنت منذ تجسدت في التاريخ واللغة «[1]. وهذا يقترب من رأي طه حسين الذي تقدم بداية البحث .

تطرف الباحثين المحدثين

ومن يتابع الحركة الفكرية التي أثارتها آراء طه حسين، فسيجد أنَّ المرحلة الأخيرة شهدت توسعاً في الآراء حدَّ التطرف، فحتى دراسات نصر حامد أبو زيد لم تسلم من مهاجمة بعض الباحثين؛ كونها ما تزال تدور في فلك الفكر الأصولي ، على حدِّ زعم هؤلاء الباحثين، فعلي حرب، مثلاً، يرى «غياب ذات نصر الواعية وآلياتها، مما يجعله لا يختلف عن رأي الأصوليين في قراءته للنص القرآني الحاضر»[2]، ويرى أنه استمر في النهج نفسه من بحث وتوليد للمفاهيم الإجرائية في الشرح والتفسير ومن ثمَّ «أبقى نصر على اللغة نفسها الماورائية الغيبية للأصوليين في حين أن مشروعه الفكري يقوم على الدعوة للتحرر منها» [3] .

أما محمد أركون فقد وصف قراءة نصر بالقراءة العادية، فكل أنماط القراءات أو مستويات الاستخدام الإيماني للقرآن مسجونة داخل السياج الدوغمائي المغلق[4] .

لقد وصل الأمر بتلاميذ طه حسين إلى إنكار التراث العربي تماماً، وأرادوا إقامة ثقافة جديدة، على أساس من فلسفة اليونان ، ولما كانت النهضة الفكرية للأمم لا تتم إلا استناداً إلى قاعدة من تراثها القديم، حدث تباعد بين الجماهير العربية والمفكرين الجدد، وهم غالبيتهم من أساتذة الفلسفة اليونانية والأدب الإنكليزي ، وممن تأثروا بالفكر الماركسي، واعتنق تلاميذ طه حسين نظرته التي تنكر تراث الأمة الحضاري القديم وتعتبر أن الفضل لليونان، فقد قام محمد عابد الجابري بتأكيد نظرة طه حسين إلى التنوير الغربي، فتبنى نظرة التنويريين تجاه حضارات الشرق القديمة، فهو يقول: «إنَّ المعطيات التاريخية التي نتوفر عليها اليوم تضطرنا إلى الاعتراف للعرب واليونان والأوربيين، بأنهم وحدهم مارسوا التفكير النظري العقلاني بالشكل الذي سمح بقيام معرفة علمية إلخ ....»[5]. ولعلنا نكتفي بهذا القدر؛ لكي لا نبتعد عن صلب الموضوع الأساس، وهو ما أحدثه المنهج الديكارتي، أو ما عرف بمنهج الشك لدى طه حسين في إثارة الحركة الفكرية التي امتدت إلى يومنا هذا وكانت نواتها متمثلة في بحث الشعر الجاهلي؛ بغض النظر عن قبولنا أو رفضنا لإفرازاتها ونتائجها .

---

(1) النص ، السلطة، الحقيقة، نصر حامد أبو زيد ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، ط1، 1995م : 98.

(2) نقد النص، علي حرب، المركز الثقافي العربي ، 2005 : (مفتوح)

(3) نقد الناقد ، قراءة نقدية في فكر نصر حامد أبو زيد ، مصطفى شلش ، مصر 2019: (مقال)

(4) ينظر :المسكوت عنه في نقد نصر حامد أبو زيد ، عبد السلام يوبي ، جامعة مولود معمري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 2011: 13.

(5) تكوين العقل العربي، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ط8، 2002 : 17.

النتائج

دأب بحثنا هذا على بيان أهمية منهج ديكارت، وما أفرزه من نظرية الشك، بوصفها الخطوة الأولى للباحثين على طريق المعرفة .

1. ركز البحث على قضية تأثر طه حسين بالمنهج الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء، من جانب، ومن جانب آخر حاول هذا البحث أن يبيَّن أنَّ طه حسين لم يلتزم كلياً بمنهج ديكارت، وذلك في القضايا المتعلقة بالميتافيزيقيا، أو المجتمع، فديكارت استثنى المجالات الحيوية في الواقع الديني والأخلاقي والاجتماعي والسياسي، فلم يشك في عقائد الدين السائد والكنيسة والكتاب المقدس، ولافي عادات الأمة وتقاليدها وأخلاقها . أمَّا طه حسين فقد أخضع هذه القضايا للنقد على وفق النظرية ذاتها .
2. كانت نظرية الشك في الشعر الجاهلي عند طه حسين منطلقاً للتشكيك بكثير من المسلمات، وقد كان على رأس تلك المسلمات (القرآن الكريم)، غير أنَّ الدكتور طه حسين نفى أن يكون القرآن الكريم أو تراث الأمة مستهدفين في نظريته؛ بل كان هدفه إثارة هذه القضايا من أجل الوصول إلى الحقائق التي يطمئن إليها الباحث الحاذق والعالم النحرير .
3. أثارت شكوك طه حسين زوبعة عاتية من ردود الأفعال، فكان بعضها مؤيداً، ولكن معظم هذا التأييد انصبَّ على فكرة المنهج، وليس على النتائج التي توصل إليها . أما المعارضون، فكان منطلقهم في المعارضة والرفض، هو ما يستتبع التشكيك بالشعر من تشكيك بالمقدسات، فرأى الرافضون أالقرى،وع الكتاب في ظاهره موجه للشك في الشعر الجاهلي، ولكنه في حقيقته دعامة من دعائم الكفر ومعول لهدم الدين، وكأنه ما وضع إلا ليأتي على هذا الدين من أصوله .
4. من نتائج آراء طه حسين ظهور طبقة مما يسمى بالباحثين التنويريين، الذين اعتنقوا نظرته التي تنكر تراث الأمة الحضاري القديم وتعتبر أن الفضل لليونان، وقد انتقل البحث من ميدان الشعر الجاهلي إلى ميدان التاريخ العربي والحضارة العربية الإسلامية، وانصبَّ التشكيك في خاتمة المطاف على القرآن الكريم .

المصادر والمراجع

1. أشهر الردود على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين، دراسة نقدية تحليلية، نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، جامعة أم القرى ، 1426هـ ـ 2005م .
2. تحت راية القرآن، مصطفى صادق الرافعي، صحح أصوله محمد سعيد العريان، دار الفكر العربي، ط7، 1394هـ ـ 1974م .
3. تكوين العقل العربي، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ط8، 2002م .
4. الحركة النقدية حول كتاب طه حسين في الأدب الجاهلي، عمرو زاير ، كلية الآداب واللغات ، جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة، 2007ـ 2008م .
5. حوار الأجيال ، حسن حنفي، دار قباء ، القاهرة ، 1998م .
6. ديكارت وسلسلة نوابغ الفكر الغربي، د. نجيب بلدي، دار المعارف، ط2 .

7. الشهاب الراصد ، محمد لطفي جمعة ، مطبعة المقتطف ، والمقطم ، مصر ، ط1، 1929م .
8. طه حسين مع نصر حامد أبو زيد في منفاه، محمد فايز جاد ، مجلة بوابة الأهرام ، 2017م (مفتوح) .
9. العالم أو كتاب النور تأليف : رينيه ديكارت، ترجمة أميل خوري، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1419هـ - 1999م .
10. في الشعر الجاهلي، تأليف د. طه حسين ، دار المعارف للطباعة، ط2، 1998م.
11. قواعد المنهج عند ديكارت ، شرفة وحيدة، جامعة 8 ماي 1945، قالمة ، كلية العلوم ، قسم الفلسفة ، 2017- 2018م .
21. كتاب مجلة المنار، مجموعة من المؤلفين، مطبعة المنار، 1315هـ .
13. المتنبي رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، دار المدني ، جدة، 1987م .
14. محاكمة فكر طه حسين، مراجعة كاملة لمؤلفات وكتابات طه حسين، خلال خمسين عاماً ، في مواجهة ردود أكثر من أربعين عالماً، أنور الجندي ، دار النصر للطباعة الإسلامية ، شبرا .
15. المسكوت عنه في نقد نصر حامد أبو زيد ، عبد السلام يوبي ، جامعة مولود معمري، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، 2011م .
16. مصادر الشعر الجاهلي وقيمته التاريخية ، ناصر الدين الأسد، دار المعارف مصر ، ط5 .
17. معاثر المنهج الديكارتي من البداهة والوضوح إلى التلفيق بين العقلي واللاهوتي ، غيضان السيد علي، مجلة الاستغراب ، 2021م .
18. مقال عن المنهج تأليف: رينيه ديكارت، ترجمة: محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط3، 1985م .
19. مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي ، دار المعرفة، ط1، 1961م .
20. النحو العربي ومنطق أرسطو ، الحاج صالح ، مقال علمي .
21. النص ، السلطة، الحقيقة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، ط1، 1995م : 98.
22. النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاالعربي،مد أحمد الغمراوي ، المكتبة العربية ، بيروت ، 1981م .
23. نقد الناقد ، قراءة نقدية في فكر نصر حامد أبو زيد ، مصطفى شلش ، مصر 2019م .
24. نقد النص، علي حرب، المركز الثقافي العربي ، 2005م .